

ليرة واحدة لاستعادة تركيا العظمى

آخ يا بغداد .. لم أعرف أ،ك أجمل
بلاد الدنيا .. ولكن ما أتعسني
حين تكون بغداد لغيرنا ..
ولذلك قررنا بناء زاوية باسمها
في قصرنا العامر باستانبول ..
آخ يا بغداد .

(السلطان العثماني مراد الرابع)

في نهاية الخمسينات . فوجيء طالب عراقي يدرس الاقتصاد في الولايات المتحدة بزميله التركي وقد احتد في مناقشة مفتوحة حول العلاقات بين بلديهما ، ولم يهدأ الدارس التركي الا بجمع أفكاره في حل للميلان الذي يدمج علاقة بلاده بالعراق والعرب الآخرين ، إنذ قال له :
” يجب على تركيا ان تتبع المياه الى العراق مثل ما تتبعون النفط لها . سنطالب بذلك يوماً وسندافع عنه في المستقبل ” ولم يدر في خلد الدارس العراقي انه سيصبح موظفاً في بنك بمدينة استانبول ويصبح الدارس التركي تورغت اوزال رئيساً في أنقرة !

تتبع كتاب أتراك سيرة اوزال وتدرجه من مواطن مغمور فشل في زواجه الاول الى رئيس دولة طموح ينقل أفكاره المبكرة الى خبز التطبيق ، وبخاصة في التعامل مع العراق ودول الجوار الاخرى المحيطة ببلاده ، ويذكر الكاتب التركي ” امين جول آشان ” في كتابه ” من اين ينطلق اوزال ؟ ” ان مدينة (مالاتيا) الواقعة شرق الاناضول كانت موطن ولادة تورغت اوزال سنة 1927 في أحضان عائلة ميسورة تتبع احدى الطرق الصوفية ، وانه توجه الى انقرة بعد اكمال دراسته الثانوية ، ثم الى استانبول ليدرس الهندسة في جامعتها ، ولكن فشل بعد التخرج في العمل كمهندس ، وتلا ذلك فشل آخر عندما تزوج فتاة صيدلانبة ولم تمكث معه غير بضعة أشهر لتفترق بهما الطرق ، فيغادر بلاده الى امريكا حيث حصل على شهادة متخصصة في الإقتصاد ، ووجد على الفور فرصة للعمل في البنك الدولي بواشنطن ويبدو انه عثر في هذا البنك على فرصة العمر في التعرف على عدد من صانعي السياسة الامريكية الذين يوجهون البنك ، واعجب بهم ، وتقرب من مساعديهم ، وعرف نفسه اليهم ، حتى اذا عاد الى بلاده كانت قد تولدت لديه رغبة جدية في العمل السياسي وتوافرت له الفرصة الكبيرة ليكون احد مهندسي مشروع (جنوب الاناضول للمياه) الذي يشمل سد اتاتورك المثير للجدل بين تركيا وكل من العراق وسوريا حول اقتصاص مياه نهر الفرات .. وبعد ان تزوج من امرأة اسمها (سمرة) حملت اسمه وانجبت له بنتاً وولدين .

وصار حصوله على شهادة من امريكا وعمله السابق في البنك الدولي عاملاً مساعداً لكي يتولى مطلع السبعينات رئاسة دائرة التخطيط الوطني التركي المكلفة بمعالجة الازمة الاقتصادية في البلاد الناجمة عن سياسات عدنان مندرس في الستينات .

وكانت سنة 1977 حاسمة في حياته السياسية ، إنذ رشح نفسه للبرلمان عن مدينة ازمير من حزب الانقاذ الوطني وهو الحزب نفسه الذي تغير اسمه الى حزب الرفاه وصار معارضاً لاوزال بعد توليه الرئاسة . وعندما عمل مستشاراً في حكومة سليمان ديميرل قبل سنة 1980 ساء ما أظهره رئيس الوزراء من رغبة في تحسين العلاقات مع العراق ، بالرغم من أن اخاه يوسف اوزال كان قد حقق أرباحاً كثيرة من عقود أبرمتها شركاته مع العراق .. ولطالما وصفه معارضوه بعد الانقلاب العسكري بأنه ليس سوى أداة بيد المصالح الامريكية في تركيا ، وحافضة على فرصته مع العسكر الذين أعطوه منصب نائب رئيس ال وزراء لشؤون الاقتصاد . ثم توالى صعوده السياسي حتى اصبح رئيساً لبلاده في تشرين الثاني 1989 بعد أن كان قد أسس حزب الوطن الام 1982 وظل شديد الحساسية من العراق ، حتى إذا زار العراق بصفته رئيساً للوزراء سنة 1988 وقابل الرئيس صدام حسين عاد الى انقرة ليحرّض الصحفيين على انتقاد الصورة الرسمية التي نشرت في العراق ~ وظهر فيها الرئيس يتطلع اليه من علو ~ بحيث جعل الامر مسألة تشغيل الصحافة ، رغم انه خرج من لقاءه بالرئيس صدام حسين بنتائج كبيرة عززت مكانته في تركيا ، إنذ فشل في مفاوضاته التمهيديّة مع طه ياسين رمضان (كان في منصب النائب الاول لرئيس الوزراء العراقي آنذاك) في حل القضايا المتعلقة بالعقود التجارية ومتعلقات أنبوب النفط ومشاكل الأمن المشترك على الحدود ، ولكه وجد لدى الرئيس صدام حسين تفهماً ورغبة في إيجاد الحلول ، حتى انه هتف وسط أعضاء وفده بعد خروجه من المقابلة (لقد أعطاني كل ما تمنيت الحصول عليه) .

ويبدو ان فرحة اوزال كانت بحصوله على ما كان يتمناه في لحظة من الزمن ، وليس على كل ما يتمنى الحصول عليه من العراق ، وهو يتذكر كل سنة ان على تركيا ان تقتنص الفرصة المناسبة في يوم من الايام ليصبح العراق الجار الضعيف وتستعيد بلاده دور المهيمن على المنطقة عبر بوابة العراق .. ففي نهاية سنة منقبة ومطلع سنة جديدة عليه ان يتأمل جيداً باباً ثابتاً في مصادر الموارد عند مناقشة موازنة الخزينة العامة للبلاد .. في الحاشية الأخيرة عبارة تتكرر منذ إعلان استقلال العراق سنة 1921 (الموارد من بتزول الموصل = ليرة واحدة) ، وتكفي هذه الاشارة الرمزية لتذكير الساسة الاتراك ان استقلال ولاية الموصل عن الإدارة العثمانية واعتبارها جزءاً من العراق الحديث المستقل هو امر ينبغي على تركيا عدم القبول به الى الأبد .. وتكفي ليرة واحدة تضاف الى الخزينة كل سنة للتذكير بالطريق المؤدي الى الحلم الذي لم يشبعه تجاوب الرئيس صدام حسين مع طلبات اوزال في مناسبة واحدة فقط !

كانت المرة الاولى في حياة توركت اوزال التي يشهد فيها سقوط صاروخ بعيد المدى قطع 800 كيلومتر من موقع اطلاقه لينفجر على بعد مئات الامتار

من مكان اقامته في اول يوم يزور فيه طهران بصفته رئيساً لبلاده ، وقد ساءه كثيراً أن يستقبله في العاصمة الإيرانية صاروخ عراقي ، قدر ان يطلقه العراقيين لم يأبهوا بوجوده هناك ليرجئوا قصف طهران بضعة ايام ، ولم يكن من السهل عليه ان ينسى المرارة والإرباك اللذين رافقا اليوم الاول من زيارته بسبب موجة الصواريخ العراقية لكن العراق لم يلبث ان أعلن في اليوم التالي لزيارة اوزال عن وقف مؤقت لهجماته بالصواريخ على طهران احتراماً لزيارة الرئيس التركي .

وعلى هامش زيارة اوزال الى طهران كانت ثمة مفارقة .. إنزُ وفرت وكالة انباء الاناضول اسرع خدمة خبرية كان العراق يحتاجها في أدق اللحظات منت اريخ صناعة الصواريخ إنزُ أبرق مندوب الوكالة المرافق للرئيس التركي واصفاً مكان سقوط الصاروخ وقوة انفجاره ليعطي العراقيين خدمة كبيرة عندما كانوا في حالة استنفار لإلتقاط أية إشارة عن نجاح اطلاق اول صاروخ يصل مداه الى العاصمة الإيرانية !

كان أكبر حادث قد مر به من قبل محاولة اغتيال فاشلة تعرض لها في اجتماع حزبي عام بأنقرة أجبره على التخفي وراء منصة الخطابة وحشد من رجال الشرطة ، وما عدا ذلك فان الرئيس التركي ظل يبدو طوال حياته السياسية أقرب الى شخصية الخبير الاقتصادي المنغم في قيم العلاقات التجارية التي تترك على صاحبها مسحة من المرونة وتجعل الحياة المفضلة لديه هي حياة الدعة والهدوء ، وكانت شخصيته تلك ، كإقتصادي ومهندس ، قد طبعت أسلوبه في التعامل مع العراق خلال الحرب العراقية – الإيرانية ، يوم نجح في رفع حجم الميزان التجاري بين البلدين الى ثلاثة مليارات دولار سنوياً ، بميلان راجح لصالح التجارة التركية ولكن العراق لم يكن البرتقالة الوحيدة التي أمسك بها ، فقد كانت في يده الثانية بـرتقالة اخرى هي (إيران) يوم بلغ ميزان التبادل التجاري بين انقرة وظهران مليارين الى مليارين ونصف المليار بين الدولارات ، وفي حين كان النفط العراقي يتدفق عبر الأنبوب الممتد في أراضي العراق وتركيا وصولاً الى مصبه في ميناء (يومورتلك) على البحر المتوسط لم يقطع مفاوضاته مع الإيرانيين لمد انبوب الغاز عبر الاراضي التركية وصولاً الى الحلم المزمع الذي يشغل طهران لنقل غازها الى اوربا ليكون بديلاً او منافساً على الاقل للغاز السوفيتي آنذاك .

صارت تركيا خلال الاضطراب الدموي بين العراق وإيران ، يابان الشرق الأوسط في الجانب الاقتصادي خلال الحرب الكورية ، فانتعشت الصناعات التركية ، وخاصة تلك البديلة او المستنسخة عن الصناعات الاوربية ، ووقف اوزال يوماً امام مشروع سد اتاتورك الذي أصبح احدى نقاط التصادم المحتمل مع العراق وسوريا ، فتأمل العمل فيه ، وخاطب مستمعيه من المهندسين والعمال : " لولا الحرب بين العراق وإيران لما تمكنا من بناء هذا المشروع " .. ولم تكد الحرب العراقية – الإيرانية تنتهي حتى انفجرت مشكلة المياه في منتصف كانون الثاني (يناير) 1990 عندما أعلنت تركيا قطع مياه الفرات عن سوريا والعراق لمدة شهر لملء خزانات سد اتاتورك . وهو امر الحق خسائر كبيرة بالقطاع الزراعي في العراق وازداد عامل استنزاف اخر للإقتصاد العراقي في توقيت متوافق مع بدء انهيار اسعار النفط .. ولم يكن من السهل عدّ اقتران الأمرين مجرد مصادفة خاصة وان تركيا ألحقت حصر المياه بإعلانات رسمية عن مشروع تزويد اسرائيل بالمياه عبر (انبوب السلام) طبقاً لتصريحات السفير التركي في الاردن 14 / 5 / 1990 .. وكان العراقيون مجتهدين في العثور على تفسير للإيقاع السريع الذي يتسم به السلوك التركي في مناخ الشعور بوجود عمل كبير ضد بلادهم . في تلك الأثناء نشأ أكبر اسطول للنقل البري في تاريخ المنطقة كان يعمل في مسارين أحدهما مع العراق الذي كانت تعبراليه ثلاثة آلاف شاحنة والآخر مع ايران حيث يتحتم على الشاحنات عبور جسر (قطور) الاستراتيجي على الجانب الايراني من الحدود ، وهو الجسر الذي قصفته الطائرات العراقي لتعرقل حركة المرور البري الى تركيا في واجدة من اصعب المهمات نحو اهداف بعيدة داخل ايران نفذها الطيران الحربي العراقي خلال سنوات الحرب الثماني بين العراق وإيران .

وما كاد العراق يعلن عن تجربة اطلاق صاروخ العابد الحامل للأقمار الصناعية عام 1989 حتى أثرت الحكومة التركية الشكوك حول اهداف العراق وبناته من تصنيع الصاروخ واطلاقه ، وأجابت الصحافة التركية بعناوين كبيرة " الصاروخ العراقي سيضرب استانبول وليس انقرة " وذهب بعض المحرضين في الصحافة الى حد تحديد المكان الذي ستسقط عليه الصواريخ العراقية ، على امتداد ساحل استانبول على بحر البسفور ، في فترة لم تكن هناك مشكلات سياسية وامنية وعسكرية حادة بين البلدين ، ولذلك عدت الدبلوماسية العراقية روح الإثارة في الصحافة التركية ناتجاً لتحريض (قوى معادية لتحسين العلاقات بين انقرة وبغداد) ، وطارت من العراق وفود حكومية وبرلمانية وشعبية ، لإشاعة مناخ من الاطمئنان ، كان آخرها وفد الاسبوع الثقافي العراقي الذي زار تركيا في يوليو (تموز) 1990 وضم مائة وعشرين كاتباً وشاعراً وفناناً ، وجدت نفسي . بإعتباري رئيساً ووفد ، ملزماً بالحديث الى نخبة من شعراء تركيا وأدبائها في المركز الثقافي العراقي بأنقرة ، وخاطبت الحضور بعد عزف عراقي مثير على العود آثار مشاعر السامعين الأتراك : " ان في بلادنا أسطورة تحكي ان للغزال صوتاً إذا بكى هو أقرب الى صوت العود ، ولذلك أشعر ان روح الاسطور لا تتلبس العراقيين وحدهم بل الاتراك أيضاً ، طبقاً لما تركته من شجن في نفوسكم .. ويصح القول اليوم . انكم شرق والعراق شرق وهما

قادران على اللقاء اما الغرب فسيدير ظهره لكم مهما سعى السياسيون لإظهار امكانية الذوبان معه في حضارة جديدة تلم شمل الاثنين .. فنحن أقرب الى بعضنا . والغرب أبعد عن الاثنين .. وقابل الحضور الأتراك ذلك الكلام وإيحاءاته بإرتياح في مناخ من التفاهم والإطمئنان الذي يمتص روح عداء لم يكن العراقيون في حاجة لإشاعته في تركيا . ولم تكدمضي بضعة ايام حتى أثارت الصحافة التركية ضجة حول مدفع القيامة العملاق الذي كان العراق يبنيه .. لتتساءل عن الأهداف التي يمكن له أصابتها ، فإذا بها ترسم أهدافه في عمق تركيا ، وليس على جبهة العراق الشرقية في اتجاه إيران او الغربية بإتجاه اسرائيل .

كانت تركيا اول دولة غير عربية ، توجه اليها العراق بعد الثاني من آب 1990 ، لمنع انضمامها الى تحالف سريع التشكل ضد بغداد ، فطار السيد طه ياسين رمضان في الخامس من آب يحمل رسالة من الرئيس صدام حسين الى الرئيس التركي يدعوه الى نظرة شاملة معمقة للعلاقات ، بجذورها التاريخية ، ولوحدة الأمن الإقليمي ، والمصالح المشتركة ، والتجارة الواسعة ، وحيوية انبوب النفط العراقي للبلدين ، الى جانب ان دخول القوات العراقية الى الكويت هو شأن عربي ولن تكون له أية نتائج مسيئة الى تركيا التي تعتمد على النفط العراقي في تلبية اكثر من 60% من احتياجاتها . ، لن الرئيس اوزال كان ينظر الى الامر من زاوية اخرى ذات أبعاد ثلاثة :

الاول : ان امريكا أوعزت الى حلفائها الأغنياء في السعودية الكويت لتعويض تركيا على الفور عن خسائرها في حالة إغلاق انبوب النفط العراقي (تبلغ عائدات تركيا مليار دولار سنوياً) .

الثاني : صحيح ان دخول القوات العراقية الى الكويت ليس موجهاً مباشرة الى تركيا ، ولكن منظري السياسة الخارجية التركية وجدوا في هذه الخطوة توسيعاً للدور الاقليمي للعراق على حساب ادوار دول اخرى في المنطقة ، منها تركيا التي كانت قد باشرت منذ انتهاء الحكم العسكري بناء علاقات اقتصادية وسياسية واسعة مع الدول العربية في المشرق ومنطقة الخليج .

وكان من أبرز دعاة هذا التفسير (جوشكن كورجه) ، وهو كاتب في صحيفة كونش لم يلبث ان أتهم بالتجسس لصالح المخابرات الامريكية ، ومُنع بناء على ذلك من الكتابة في جميع الصحف التركية ، وكرس الاتجاه نفسه في التفكير كاتب آخر هو سامي كوهين وهو يهودي يعمل في صحيفة (ميلبيت) . الثالث : ان تركيا وجدت في إنضمامها العاجل الى التحالف ضد العراق فرصتها النادرة لتأكيد استمرار وجود اهمية جيو – سياسية للإقليم التركي ، وهي الأهمية التي بدا انها مقبلة على الإضمحلال مع بدء انحسار الخطر السوفيتي ، حتى صار الانضواء الى عمل عسكري وأمني وسياسي جديد هدفه تطويق العراق ، الفرصة غير المتوقعة للتعويض عن خسارة محتمة مع زوال الخطر السوفيتي .

وطلب المبعوث العراقي من الرئيس التركي ان تتخذ بلاده موقفاً محايداً أقرب الى موقفهما خلال الحرب العراقية – الإيرانية ، وان تلتزم بعناصر الاتفاق حول تشغيل انبوب النفط العراقي المار عبر اراضيها ، ملمحاً له ان العراق سنيظر الى هذا الموقف بامتنان ولن ينسأه في المستقبل .

وأبلغ السيد طه ياسين رمضان الرئيس التركي ان العراق يرى ان جميع المشاكل بين البلدين بما فيها قضية المياه ستؤول الى حلول سريعة اذا ما وقفت تركيا على الحياد .. فرد اوزال أن بلاده ملتزمة بقرارات مجلس الأمن التي كانت قد بدأت تتوالى يومئذ . وأن تركيا تطالب العراق بالانسحاب فوراً من الكويت ، لان دخول القوات العراقية الى بلد مجاور للعراق آثار حفيظة جميع جيرانه رغم ان هذا الدخول لا يبدو موجهاً بصورة مباشرة الى تركيا .

وذكر لي السيد طه ياسين رمضان انه كان أعرف القياديين العراقيين شخصية الرئيس التركي ، إذز عملاً سوية لتطوير العلاقات الثنائية عند تولي السيد اوزال رئاسة الحكومة التركية ، وتكررت اللقاءات بينهما بصورة دورية مرتين في السنة ، ومع ذلك يشعر السيد رمضان انه فوجيء بموقف الرئيس التركي :

– اذا كانت هناك مفاجأة فانه تتمثل في موقف الرئيس التركي توركوت اوزال والمصري حسني مبارك ، فقد كما نعرف انهما مرتبطان بالسياسة الامريكية ، ولكننا لم نتوقع ، برغم ذلك ، ان يتخذنا موقفاً مبالغاً فيه ضد العراق .

استمع اوزال الى المبعوث العراقي وهو يتحدث له عن عائدية الكويت الى العراق طبقاً لوثائق الامبراطورية العثمانية يوم كان العراق بولاياته الثلاثة الموصل وبغداد والبصرة جزءاً من تلك الامبراطورية ، وكانت الكويت قضاء ملحقاً بوالي البصرة .

لم يرفض الرئيس التركي ما استمع اليه من تحليل ، لكنه عاد ثانية ليخاطب السيد رمضان :

– مع ذلك كان بإمكانكم إيجاد حل سياسي .

فأجاب المبعوث العراقي على الفور :

– لا زالت هناك امكانية حقيقية لإيجاد هذا الحل .. وأرجو ان يكون لتركيا دور ايجابي في مثل هذه المحاولة مع اننا نعرف انكم قد تتعرضون الى ضغوط من جانب الولايات المتحدة .

هزّ الرئيس اوزال رأسه وقال :

– نعم ستكون هناك ضغوط كبير ، على اية حال كنا نتمنى ان لا يحصل ما حصل ، ونرى ان تنسحبوا الآن بسرعة ، اما نحن في تركيا فسنستصرف بما ينسجم مع مصالحنا ، وتذكرون اننا كنا قد تعرضنا لضغوط كبيرة خلال الحرب العراقية – الايرانية من أجل غلق الأنبوب العراقي ، ولكننا رفضنا غلق هذا الانبوب .

وأعطت كلمات اوزال الاخيرة انطباعاً أولياً للمبعوث العراقي – نقله فور عودته الى بغداد الى القيادة العراقية – خلاصته : ان احتمال إبقاء النفط العراقي مفتوحاً أكبر من احتمال غلقه ..

لم يكن اللقاء الذي استغرق اربعين دقيقة ، تبدد نصفها في الترجمة ، كافياً لمعرفة الخطوات التركية التالية ، بما فيها تلك التي صدرت بعد بضع ساعات من اللقاء ..

لذلك سادت لقاء الرئيس اوزال مع الوفد العراقي لغتان مفترقتان من حيث النيات والأهداف ، وكان ذلك إيذاناً بإعلان موقف تركي متشدد ضد العراق قام على المقامرة بـ (المضمون القليل) لكسب (كثير من مستقبل غامض) ، وصار على تركيا ان تلعب دور الشد في لعبة سحب الاطراف من الحافات الخارجية للعراق ، لتُظهر لأمريكا وأوروبا انها الأقدر على لعب دور من هذا النوع . ولتطالب بمكافأة سياسية ومالية كبيرة من الكويت التي دفعت على الفور مليار دولار ، والسعودي التي وعدت بالمحافظة على العلاقات التجارية والمالية المميزة التي حققت منذ سنة 1985 انعطافاً حيوياً بموجب اتفاق اوزال مع وفد سعودي كبير على قيام السعودية بتمويل برنامج تصنيع طائرة (اف 16) وتقديم عون مالي سريع لمنع انهيار اقتصادي محتم نشأ بعد سلسلة الاجراءات الاقتصادية التي اتخذتها حكومة اوزال عندما لم يستوعب الاقتصاد التركي التحول المفاجيء والسريع الى اقتصاد السوق الحر ، وكان على تركيا ان تلتزم سرياً مع السعودية في أية خطط دفاعية لصالح المملكة مستقبلاً . اما الولايات المتحدة فقد أطلقت يدها للتحرك ضد الأكراد وفتحت امامها مصادر التبضع العسكري من المخازن الامريكية والأوروبية على السواء .

وشنت الصحافة التركية حملة ضد العراق لم تخلُ من إثارة المشاعر عندما استغرقت قبول اوزال ان يدخل عليه المبعوث العراقي يحمل مسدسه الشخصي ، ووضعت الدوائر حول المسدس لتؤشره امام قارئها ، في اطار حملة استفزاز للمشاعر ولمقاومة ضغوطات احزاب معارضة تحفظت على موقف اوزال وفعاليات اقتصادية تركية تلقت ضربة كبيرة بوقف التعامل التجاري مع العراق .

ما ان غادر المبعوث العراقي انقرة حتى اندفعت الكتيبة الاولى من الدبابات التركية عابرة من قواعدها في مدينة ازمير في اتجاه الحدود مع العراق ! ومرة اخرى ، كان جيمس بيكر وزير الخارجية الامريكي يلاحق المبعوثين العراقيين الذين انتشروا بعد الثاني من آب (أغسطس) . مثل الظل ، وسنجد ان ما سيحصل في انقرة . حصل في الرياض والاسكندرية . فقد طارطه ياسين رمضان عائداً في 6 آب (أغسطس) . لتحت طائرة جيمس بيكر صباح 8 آب (أغسطس) وليستقبله اوزال على الفور ليبلغه ببساطة انه رفض عرض العراق للوقوف على الحياد .

وانتعشت في تركيا دعوات الأحزاب القومية المتعصبة لقيام تركيا العظمى التي تضم مدينتي الموصل وكركوك العراقيتين ، وتبنى هذا الاتجاه (الباصلان توركش) رئيس حزب العمل القومي صاحب المنهج الطوراني القائم على المطالبة بأجزاء من العراق ، وهو حزب صغير ذو نفوذ سياسي محدود لم يمكنه من الحصول على أكثر من 3% من مقاعد البرلمان عندما دخل الانتخابات عبر تحالف مؤقت مع حزب الرفاه ديني الإتجاه .

لم يخفه اوزال نزعته في الحصول على ثمن كبير لموقفه في ازمة الخليج ، عندما أبلغ صحفيين كانوا يرافقونه في سيارته أثناء جولة له جنوب البلاد : " ان على الغرب ان لا ينسى دور تركيا .. فنحن من حكم هذه المنطقة لسنوات طويلة ومن حقنا اليوم ان تكون لنا حصة عظيمة . " وقد فهم الصحافيون اشارة اوزال فأعلنوا في اليوم التالي أن رئيسهم يعني " اننا نريد جزءاً من أرض العراق " . وهو الامر الذي حفّز السفير الأمريكي في أنقرة لتطويق تصريحات الرئيس وتفسيرات الصحافة لها فوصفها بأنها (ثرثرة) ، في وقت كانت الحرب لم تندلع بعد .

ورغم ان أحزاب المعارضة وقفت ضد تورط تركيا في الحرب ، الا أن مواقفها تراوحت بين التحفظ والمطالبة بإنسحاب العراق من الكويت وممارسة الضغط الاقتصادي ، واضطر (اردال اينونو) رئيس الحزب الاجتماعي الى نفي تصريح كان أدلى به لجريدة الجمهورية لدى زيارته بغداد وأعلن فيه (أنهم لن يدعوا الأمريكان استخدام قاعدة انجريك ضد العراق) ، إنرُصحت صحيفة جمهوري الناطقة باسم حزبه هذا التصريح وردته الى وجود التباس في فهم اصل السؤال الموجه اليه ، بما يظهر ان المعارضة لم تكن قادرة على الإصطدام بخطوط حمر مانعة وضعها الامريكان عشية اندلاع الحرب .. واتخذ

حزب (الرفاه) الذي يتزعمه (نجم الدين أربكان) وحزب اليسار الديمقراطي الذي يتزعمه (بولند اجويد) والحزب الاشتراكي الذي يقوده (دوغو برنجيك) مواقف متعاطفة مع العراق وأداموا الحوار العراقي – التركي عبر قنوات مباشرة ، في حين تحفظ (سليمان ديبريل) رئيس حزب الطريق الصحيح على المغالاة في موقف اوزال ضد العراق عندما بلغ الأمر حد طرد الطلبة العراقيين وإيقاف جميع أشكال التعامل التجاري .

وسط ضجيج المعارضة ، وفي حمى الاتصالات الدبلوماسية بين تركيا ودول الغرب وبلدان الخليج ، لم يتسرب الى العلن قرار وقعه رئيس الجمهورية في العاشر من آب (بعد يومين من زيارة جيمس بيكر) . (بإعلان حالة الحرب ضد العراق) جرى تعميمه على قيادات الجيش وأجهزة الإستخبارات المدنية والعسكرية ، في وقت كان اوزال ما يزال يفاوض أعضاء البرلمان التركي على منحه هذا الحق دستورياً .. ويوم انتزع قرار المجلس يوم 14 آب (أغسطس) ، كان توقيعه على اعلان الحرب قد سبق التخويل بأيام ، بعد ان أغلقت تركيا أنبوب النفط العراقي يوم 9 آب (أغسطس) .

أدركت القيادة العراقية أن القوات التركية قد تعبر الحدود لإحتلال اجزاء من العراق مستغلة انتشار الجيش العراقي في الكويت وعلى الحدود السعودية . لذلك صدرت تعليمات محددة الى منظومات العمل العسكرية والإستخبارية شمال العراق لوضع خيارات لتحركها – في الدفاع او الهجوم الإجهاضي – إزاء التعامل مع احتمال من هذا النوع بعد ان جرى تعزيز الجيش الثاني التركي على الحدود ، المؤلف من فرقتين إضافة الى قوات حرس الحدود ، وبعد ان طالبت تركيا حلف شمال الاطلسي في 20 تشرين الثاني (نوفمبر) ارسال وحدات عسكرية لخوض حرب محتملة مع العراق ، ولكن التحرك الاهم لم يكن يسير على خرائط العسكريين وفي نياهم الارض ، بل اتخذ مساراته في عمل سياسي دؤوب ، لجمع قادة الاحزاب التركية المؤثرة ، لحثها على منع وقوع صهدام عسكري من هذا النوع وبهذا المستوى . ورعت بغداد من اجل انجاح خطتها نوعاً من المصالحة بين الحزب الاجتماعي وحزب اليسار وحزب الرفاه حيث حر قاداتها الى العراق في أوقات مختلفة ، واجتمعوا على إنفراد مع الرئيس صدام حسين الذي تدارس معهم الاحتمال الذي أدخلته القيادة العراقية الى حساباتها ، وأظهر تفهمه لتحفظ هذه الاحزاب على الوجود العراقي في الكويت ودعواتها من أجل انسحاب القوات العراقية الى مواقعها قبل الثاني من آب (اغسطس) 1990 ، ولكنه أراد من قادة هذه الاحزاب تشكيل رأي عام تركي مضاد لأي صهدام عسكري بين البلدين ، وبخاصة سد الطريق على احتمالات عبور البر العراقي في أي اتجاه من شمال العراق .

وكانت الاتصالات السياسية الهادئة أدق عمل وقائي لإيجاد المناخ المانع لنشوب حرب برية بين العراق وتركيا يمكن ان تضيف مأساة أخرى الى مآسي المنقطة .

هل كان العراق يتوقع التحول الحاسم في الموقف التركي .. الى حد المشاركة في إعلان الحرب ومهاجمة العراق ؟ ... وللجواب على هذا السؤال ينبغي الاعتراف ان العراقيين اكثر خبرة بجيرانهم من خبرتهم بأعدائهم البعيدين عنهم جغرافياً . فهم يفهمون الإيرانيين الذين حاربوهم 600 سنة ويفهمون الأتراك الذي خضعوا لاستعبادهم 373 سنة ، ولذلك صار وصف (العدو المحتمل) عنواناً لتركيًا حيثما وردت في الملفات العسكرية والإستخبارية وهو الامر الذي جعل الموقف الذي اتخذته الرئيس اوزال قابلاً للإستيعاب ثم الامتصاص في بغداد .. إذ ان العراق يرى نوعين من عوامل الاستقطاب في تركيا ، وهما متساويان في القوة ، أحدهما في اتجاه إشاعة مناخ العداء والتنافس ، والثاني في اتجاه إشاعة روح التعاون والتفاهم ، وكلما اختلفت الموازنة في قوة العاملين صار على العراق ان يعيد الامور الى نقطة التوازن للمحافظة على حيادية جزء من حدوده الملتهبة من كل مكان !

عندما اندلعت الحرب فجر 17 كانون الثاني (يناير) 1991 ، كان بإمكان العراق تحاشي ربع الهجمات الجوية لولا فتح القواعد الجوية في تركيا امام الطيران الامريكي ، وكان شمال العراق ، وبالأخص منطقة الموصل ، قد تحاشت معظم ما تعرضت له من هجمات جوية ، بعد ان استخدمت قاعدة (انجريك) التركية كل خمس دقائق لطلعة جوية امريكية على مدى ثلاثة واربعين يوماً من الحرب ، ولم يكن على الطائرات الامريكية ان تقطع اكثر من 150 كيلومتراً للوصول الى أهدافها التي توزعت بين المحطات الإذاعية والتلفزيونية ، ومحطات توليد الطاقة الكهربائية ، ومراكز الاتصالات ، والمقرات المحتملة لوجود الرئيس صدام حسين ، ومعامل الطابوق والإسمنت ، ومصافي النفط ، ومواقع مدنية بينها كنائس وجوامع وأحياء مكتظة بالسكان .

وما ان هدأت موجة القصف الجوي الآتية من تركيا ، حتى عرض الرئيس اوزال دوراً آخر لبلاده للتشجيع على تقسيم العراق ثم إعادة جمعه في مشروع يفتت الكيان الدستوري العراقي ، ففي الوقت الذي عيّد العراق انا لخطر الكردي هو الخط الاحمر الذي لا يمكن لتركيا تجاوزه ، وان هذا الخطر كاف لذاته في إيقاف السياسة الخارجية التركية خلف حاجز يمنع اشتراكها في أية خطة لتقسيم العراق ، خرج الرئيس اوزال بخطة عُرفت بـ (اصلاحات اوزال الكردية) و (مشروع اوزال) و (خارطة اوزال) تتجاوز هذا الخط الذي ظل مُحرمًا على الساسة الاتراك منذ عهد اتاتورك ، لتقديم بديل هو اشبه بعملية

تهشيم تليها عملية جمع لزجاج متناثر من التكوين الجيو – سياسي للعراق . من خلال تقسيم البلاد الى ثلاثة اجزاء على أساس عرقي ثم جمعها في كونفدرالية عربية / كردية / تركمانية ملحقة بتركيا بضمانات إقليمية ، بحيث تكون لتركيا القدرة على احتوائها كمناطق حيوية للنفوذ ، من خلال إحياء تقسيمات ما قبل سايكس – بيكو وعصر عصبة الأمم .

تحكيم في الموقف التركي دافعان ذاتيان مضافان لعوامل التأثير الخارجي ، ويتصل هذا العاملان بالنزوع لإستعادة دور ضائع .. إستعادة مكانة لم تعد قائمة .

“العراق يخاف العثمانيين” بهذه العبارة لخص الرئيس التركي مشاعر خليطة بين التمنيات والاستنتاجات ، وبنى عليها فرضية ان العراق لن يهاجم تركيا في يوم من الأيام لأنه كان من قبل احد مستعمرات الدولة العثمانية !

لذلك كان ثمة خليط من دوافع قومية وجيوسياسية ودينية ، بعضها غامض ، وبعضها ظاهر ، تدفع لإظهار عاملين .. والبناء عليهما ، وهما :

– الاول : البحث عن دور حضاري ، إذ ان الزلزال الذي وقع منطقة الخليج ، وما ترتب عليه من صهدام بين العراق ومن تحالف وإياه وتعاطف معه من جهة ، وبين الولايات المتحدة ومن تحالف معها من جهة اخرى ، كان ينذر بتوسيع صهدام دولي بين الاسلام والغرب المسيحي ، ولذلك التقطت تركيا هذه اللحظة المتأرجحة لتقدم نفسها على انها طرف ثالث .

لقد تمنى الرئيس التركي توركوت اوزال صراحة في اول مؤتمر صحفي عقده في الجادي عشر من آب (اغسطس) 1990 ان (تكون تركيا حلقة وصل بين العالم الاسلامي واوربا بإعتبارها دولة حديثة يقع عليها دور توفيق بين العالم الاسلامي واوربا) ، وسنرى لاحقاً ان هذا الدور لم يتبلور من الناحية العملية ، إذ ان قوى السحب المحلية التركية كانت تعطل هذه النزعة بعد نمو التيارات الاسلامية واتساعها في تركيا من جهة ، ولعدم ظهور ما يدل على قبول الغرب المسيحي بمنح تركيا مثل هذا الدور .

– الثاني : ارادت تركيا أن تستثمر الى أقصى حد التفاعلات السريعة التي احدثها الزلزال بان تقدم نفسها نموذجاً بديلاً للنظم السياسية في المنطقة من جهة ، وللقيام بدور جيوسياسي جديد كدولة عظمى في النطاق الاقليمي .. لا ينتهي طموحها باستعادة النفوذ في المحيط العربي المجاور والامتداد به الى منطقة الخليج – حيث يمكن تحقيق مستوى عال من المصالح التجارية – ولكنه يمتد من البوسنة والهرسك في الشمال الغربي وحتى جمهوريات انريجان وتركستان وشاشان في الشرق ، وقد لخص الرئيس التركي ما تمناه خلال مقابلة تلفزيونية مع برنامج (22 يزك) قبل اسبوع من بدء الهجوم على العراق بقوله : (ان هدفنا ان نخرج من هذه الازمة دولة اقليمية قوية وان لا نتعرض الى أية خسائر) .

ولن يتقرر مصير هذا الطموح في المستقبل القريب ، إذ ان قوى اقليمية ودولية اخرى ستجد في الطموح التركي نزعة منافسة تحفز عضوية حلف الناتو الذي حصلت على عضويته في ظروف الحرب الباردة سنة 1952 أيام كانت في جبهة مواجهة امام الاتحاد السوفيتي ..

بعد ان انتهت الحرب بدا ان تركيا التي ظلت مترقبة حذرة محملة بجراحات انهيار ثلجي استمر قرناً كاملاً صارت تتحول تدريجياً من سياسة اقليمية خجلة الى سياسة اقليمية جامحة لاستعادة دور مفتقد واحياء دعوات قيام تركيا عظمى تبسط نفوذها على بقايا الاتحاد السوفيتي من دول اسلامية وسط آسيا ، وتصطدم بأية قوة اقليمية منافسة ، متجاوزة مبدأ (الحياد الاقليمي) في نزاعات المنطقة الذي كان يتبناه كمال اتاتورك ، ثم تلاه بروز تدريجي للدور الاقليمي اثر اعلان مبدأ نيكسون في آسيا الذي وفر لأنقرة هذا الدور لتصبح واحدة من أثنافي الحزام الذي يطوق منطقة القلب في بلاد العرب ، الى جانب ايران وإسرائيل ..

اليوم يبدو ان تركيا ستكون ساحة وأداة في أي انفجار مقبل تشهده آسيا من وسطها حتى حافاتا الغربية ، ومن حافات تركيا الغربية حتى أعماق بلاد البلقان .